

الْفَضِيلُ الثَّلَاثُونَ

المراقبة وإصلاح السرائر

إن أعظم النعم في هذه الحياة أن يعيشها العبد على مراد ربه ومولاه ونبيه ومصطفاه، فيحيا حياته عبودية لله ومن كان كذلك سعد والله في دنياه وآخراته، ومن أهم ما يدفع الإنسان لذلك أن يعلم صفات ربه وعظمته وجلاله، وقدرته وعزته وحكمته، وكمال علمه وأنه لا يقع شيء في هذا الكون إلا بإذنه، ولا يغيب شيء عن علمه وسمعه وبصره جلّ جلاله.

وإن الناظر إلى حال أهل هذا الزمان في هذه الأيام يرى جرأة على معاصي الله، وغفلة كبيرة، وهواً غالباً، وهوى متبعاً، وشهوات مسيطرة ولذا كان من الحكمة أن نكثر من الحديث عن المعاني الإيمانية التي تؤصل في النفوس ضرورة الفرار إلى الله والإقلاع عن الذنوب المهلكة الموبقة التي تردي صاحبها إلى دركات الجحيم إن لم يتداركه الله برحمته.

والمعنى الذي نتوقف معه في هذا الآن هو مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في السر والعلن فما هي المراقبة؟

معنى المراقبة

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: المراقبة هي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نفس وكل طرفة عين^(١).

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٥).

ولما سأل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإحسان قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١)، قال ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: فسر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإحسان حين سأل جبريل فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه» أراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة وحسن الطاعة؛ فإن من راقب الله أحسن عمله^(٢).

ربنا رقيب علينا

قال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [النِّسَاءُ: ٢٣٥]، اعلم أن الله يعلم ما تخفيه وما تبديه، وما تخطط له وما تفكر فيه فراقب نظر الله إليك واطلاعه عليك وعلمه بك، واحذر أن يرى منك ما يغضبه ويستجلب لك عذابه، وإياك أن تظن ما ظنه الجاهلون الغافلون الذين زعموا أن الله لا يسمع سرهم وعلاانيتهم فبئس ما يظنون قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٨٠]، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ بجهلهم وظلمهم ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ الذي لم يتكلموا به بل هو سرٌّ في قلوبهم، ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أي: فلذلك أقدموا على المعاصي وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفى منها فرد الله عليهم بقوله ﴿بَلَىٰ﴾ أي: إنا نعلم سرهم ونجواهم ﴿وَرُسُلْنَا﴾ الملائكة الكرام ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ كل ما عملوه وسيحفظ ذلك عليهم حتى يردوا القيامة فيجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً^(٣).

(١) رواه مسلم برقم [٨] من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «لسان العرب» (١٣/ ١١٥).

(٣) «تفسير السعدي» (٩١٤).

إن كل كلمة يتكلم بها العبد تُسجّل عليه ويحصىها الله عليه كما قال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]، وهذه الآية كقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كَرَامًا كُنِينٌ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وكل ما يفكر المرء فيه وكل ما يعمل به فإن الله يعلمه ولا يغيب عنه سبحانه من أعمالنا شيء قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَحَنَّا أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]، وقال جلّ جلاله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١]، وفي هذه الآية الكريمة العظيمة يخبر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين كقوله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الانجيل: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلَمٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾ [الانجيل: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود: ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء؛ فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة كما قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١]، أي: إذ تأخذون

في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون^(١). فالله تعالى مراقب لجميع الأعمال والأحوال ولا يغيب عنه شيء من أمرنا أبداً، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [الجزء: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]. وهذا وعيد من الله خرج مخرج الأمر كما يقول الطبري رحمه الله قال: وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقول جل ثناؤه: إن الله أيها الناس بأعمالكم التي تعملونها ذو خبرة وعلم لا يخفى عليه منها ولا من غيرها شيء^(٢).

وصية نبوية

من شدة حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أمته أن أمرهم بكل ما فيه الخير لهم ونهاهم عن كل ما فيه مضرة عليهم ومن المعاني الإيمانية العظيمة التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بها أمته مراقبة الله عز وجل في الظاهر والباطن وأوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن نراقب الله في كل حال من أحوالنا في السر والعلن، في العمل، وفي البيت، وفي الطرقات، في السفر والحضر، في الصحة والمرض، وفي كل موطن وموقف أمرنا رسول الله أن نراقب الله العليم الخبير الذي لا يغيب عنه شيء من أمرنا فقال صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت»^(٣).

وقال صلى الله عليه وسلم: «احفظ الله يحفظك»^(٤)، وخص النبي صلى الله عليه وسلم الخلوات بمزيد من ذلك؛ لأنها مظنة الجرأة على معصية الله فعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما كرهت أن يراه الناس منك فلا تفعله بنفسك إذا خلوت»^(٥).

(١) «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير (٤/١٩٣-١٩٤) ط. التوفيقية.

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/٤٧٦) ط. الرسالة.

(٣) رواه الترمذي برقم [١٩٨٧]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٩٧].

(٤) رواه الترمذي برقم [٢٥١٦]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٧٩٥٧].

(٥) رواه ابن حبان في «روضة العقلاء» ص [٢٦]، و «الضياء المختارة» (١/٤٤٩)، وحسنه الألباني في

«الصحيحة» برقم [١٠٥٥].

وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضَاءٍ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا» قَالَ ثوبان: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صَفِّهِمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَّا إِنْهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمَنْ جَلَدْتَكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا»^(١).

وصايا الربانيين بمراقبة رب العالمين

قال ابن عطاء: أفضل الطاعات مراقبة الله في جميع الأوقات وقال أبو عثمان الزاهد: سرائركم سرائركم؛ فإن المطلع على السرائر يراقبك^(٢).

قال حاتم الأصم: إذا عملت فاذكر نظر الله إليك وإذا تكلمت فاذكر سمع الله منك، وإذا سكّ فاذكر علم الله فيك^(٣).

قال الربيع بن خثيم: إذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك، وإذا هممت فاذكر عمله بك، وإذا نظرت فاذكر نظره إليك، وإذا تفكرت فاذكر اطلاعه عليك؛ فإنه يقول تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الأنبياء: ٣٦]^(٤).

قال الأوزاعي: سمعت بلال بن سعد يقول: لا تكن ولياً لله في العلانية وعدوه في السر.

وقال ابن الأعرابي: أخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح عمله وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من جبل الوريد.

(١) رواه ابن ماجه برقم [٤٢٤٥] وصححه الألباني في «الصحيحه» برقم [٥٠٥].

(٢) «شعب الإيمان» للبيهقي (١٥٠/٦) برقم [٧٧٥١].

(٣) «السير للذهبي» (٨٤/٢٢) ط. الرسالة.

(٤) «صفة الصفوة» بنحوه عن حاتم (٤/١٦٢).

قال ابن المبارك لرجل: راقب الله، فسأله عن تفسيره فقال: كن كأنك أبداً ترى الله عزَّوجلَّ.

قال سفيان الثوري: عليك بمراقبة من لا تخفى عليه خافية وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء.

وعن شقيق بن سلمة أنه تلا هذه الآية: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [برئ: ١٨]، قال: لقد علمت أن التقي ذو نية.

وقال بعضهم: استح من الله على قدر قربه منك، وخف الله على قدر قدرته عليك.

وقال بعضهم:

من عامل الله بتقواه وكان في الخلوات يخشاه
سقاءه كأساً من لذيذ المنى يغنيه عن لذات دنياه
قال ابن القيم رحمه الله:

وقد قيل: من راقب الله في خواطره عصمه الله في حركات جوارحه.

وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظه من ربه لا غير.

وقال ذو النون: علامة المراقبة إثارة ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.

وقال إبراهيم الخواص: المراقبة خلوص السر والعلانية لله عزَّوجلَّ.

وقيل: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة: المحاسبة، والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم.

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري: إذا جلست للناس فكُن واعظاً لقلبك ونفسك ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك.

وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله عزَّجَلَّ في الخواطر سبب لحفظها في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره حفظه الله في حركات سره وعلايته^(١).

عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء قال: ليحذر امرؤ أن تلغنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر ثم قال: تدري من هذا؟ قلت: لا، قال: إن العبد يخلو بمعاصي الله فيلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر.

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم في الموتى، واعلموا أن قليلاً يكفيكم خير من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر لا يبلى وأن الإثم لا ينسى.

وقال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: عجبت من ذي عقل يقول في دعائه: اللهم لا تشمت بي الأعداء ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يعصي الله فيشمت به يوم القيامة كل عدو^(٢).

وقال ذو النون: من خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية^(٣).

وقال عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه^(٤).

(١) «تهذيب المدارج» ص [٣١١]، ط. المكتبة القيمة.

(٢) «الداء والدواء» لابن القيم ص [٨١-٨٢]، ط. دار ابن رجب وقال محققه: إن هذين الأثرين انقطاعاً.

(٣) المصدر السابق ص [٨٣].

(٤) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ١٤١)، ط. جمعية إحياء التراث بالكويت.

فيهِ يراقب العبد ربه؟

إن المؤمن الفطن الصادق يراقب الله عزَّجَل في كل أحواله ظاهراً وباطناً ومن تلك المواطن التي نشير إليها في هذه الصفحات ما يلي:

أولاً - مراقبة الرب في توجهات القلب:

وذلك بأن تصرف كل عبودية في القلب لله جَلَّ جَلَّاهُ فلا يرى الله في قلب العبد ما يناقض تلك العبودية كأن يحب غير الله أكثر من حبه لله أو مثل حبه لله، أو يثق في غير الله مثل ثقته في الله وغير ذلك من أعمال القلوب، إنه لازال في الناس من يتعلق قلبه بقبر أو ضريح، ومن يثق في دجال معربد، ومن يعتقد أن مخلوقاً يملك ضرّاً ونفعاً أو يعلم غيباً، فبئس ما يصنعون! لازال في الناس من إذا أصيب ببلاء في نفسه أو ماله أو ولده يظل يشكو إلى هذا ويشكو إلى ذاك ويشكو ويشكو وينسى أن يقول يا الله! سبحان ربي! أين تضرعك إلى الله؟! أين دعاؤك؟! أين ذلك لله؟! إن الخلق لا يملكون شيئاً لأنفسهم فضلاً عن أن يملكوا لك شيئاً الخلق كلهم ضعفاء عاجزون، فقراء ذليلون والله وحده هو الذي يملك أن يرفع عنك البلاء ويدفع عنك الضراء، الله وحده هو الذي يملك أن يغنيك ويعزك ويعليك، ويشفيك ويهديك، ويرحمك ويعطيك ومن الخذلان حقاً أن تحرم من اللجوء إلى الله والله جَلَّ جَلَّاهُ يقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَءَلَهُمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

فليُر العبد ربه من قلبه أنه لا يعظم أحداً إلا الله، ليرى الله من قلبه أنه ليس في قلبه ذل واستسلام إلا لربه، وليكن لسان حاله ومقاله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١١٢] لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، فمن أقبل إلى الله أقبل الله إليه، ومن أعرض عن الله أعرض الله عنه، ومن توكل على الله كفاه، ومن لجأ إليه آواه، ومن اعتصم به ودعاه نجَّاه، فكل شيء في الكون بإذنه، ولا يتحرك متحرك

ولا يسكن ساكن إلا بأمره، فله الأمر من قبل ومن بعد وله الحكم وإليه المرجع والمآب سبحانه وبحمده، فلتكن كل عبودية القلب والجوارح خالصة لله وحده، فإنه يستحق أن يعبد إلا الله الخلاق العليم العزيز الحكيم.

ثانيًا - مراقبة الله في الأعمال والعبادات:

وذلك بأن يحرر الإخلاص في كل عمل، ثم يتقن هذا العمل وذلك لتيقنه أن الله عزَّ وجلَّ ناظر إليه، مطلع على حال قلبه، ففي الصلاة مثلاً يقبل عليها بحب ويحقق فيها الخشوع ويكون فيها حاضر القلب مناجياً ربه متذللاً له يستحضر في كل كلمة في الصلاة سمع الله لها، فيصدق في كل لفظة ويواطئ قلبه لسانه، ثم هو من قبل ذلك لا يؤخر صلاة عن وقتها والله در محمد بن علي الأنصاري الحفَّار الغرناطي قال عنه ابن الخطيب: قد بقي الحفار نحوًا من عامين أو أزيد يخرج للصلوات الخمس يهادى بين رجلين لشيء كان برجله حتى كان بعض أصحابه يقول: الحفار حجة الله على من لم يحضر الجماعة^(١). وهذا الإمام عامر بن عبد الله بن الزبير يقول عنه مصعب كما في السير للذهبي: سمع عامر المؤذن وهو يجود بنفسه فقال: خذوا بيدي فليل: إنك عليل قال: أسمع داعي الله فلا أجيبه! فأخذوا بيده فدخل مع الإمام في المغرب فركع ركعة ثم مات^(٢).

ثالثًا - مراقبة الله في البصر:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَحَفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليها لا تغيب عنه سبحانه نظرة ولا خطرة قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [تآوة: ١٩]، قال ابن

(١) «الدرر الكامنة» (٤/ ١٩٩).

(٢) «السير للذهبي» (٥/ ٢٢٠).

القيم عليه رحمة الله: والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان فالنظرة تولد الخطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة ثم تولد الشهوة إرادة ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل ولا بد ما لم يمنع مانع، وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده^(١).

نعم إخواني فإن من دامت إلى الحرام نظراته دامت في الدنيا حسراته، وتشقق عزم قلبه وضعف ثباته، ومن غض بصره أطلق الله نور بصيرته، ومن غض بصره وجد في قلبه لذة الإيمان، وظهر على وجهه بهاء الطاعة ونورها قال بعض السلف: إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات، ويكفي هذا الغافل الذي يعث بعينه في العورات ويعيث بها فساداً بالنظر إلى المحرمات يكفيه رادعاً وزاجراً أن يعلم أن الله ناظر إليه ونظر الله إليه؛ أسبق من نظره هو إلى المنظور إليه فأين الحياء من الله؟! أين إجلال العبد لنظر الله وتقواه لربه وخوفه منه؟! ما أشدها والله من غفلة، وما أسوأه من مشهد حينما يقلب العبد نظراته الخائنة والله ربه مطلع عليه بصير به عالم بسوء صنيعه، فبئس الحال والصنيع.

وما سقط من سقط في مهاوي الانحراف ودركات الانتكاس، وبرائن الشهوات المهلكة الموبقة إلا من خلال هذه الآفة ألا وهي إطلاق البصر كما قيل:

كل الحوادث مبداها من النظر	ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها	فعل السهام بين القوس والوتر
والعبد ما دام ذا عين يقلبها	في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسُرُّ مقلته ما ضر مهجته	لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

وقد سئل الجنيد رَحِمَهُ اللهُ: بم يستعان على غض البصر؟ فقال: بعلمك أن نظر الله أسبق من نظرك إلى من تنظر إليه.

وقال المحاسبى: المراقبة علم القلب بقرب الرب، كلما قويت المعرفة بالله قوي الحياء من قربه ونظره^(١).

قال ابن القيم عليه رحمة الله: من أطلق نظره دامت حسرته، فأضر شيء على القلب إرسال البصر؛ فإنه يريه ما يشدد طلبه ولا صبر له عنه ولا وصول له إليه، والنظرة تفعل في القلب فعل السهم في الرمية، فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار تُرمى في الحشيش اليابس فإن لم تحرقه كله أحرقت بعضه^(٢).

رابعاً - مراقبة الله في اللسان:

وذلك بألا يتكلم المرء إلا بما يرضي الله وأن يتقي الله أن تخرج من لسانه كلمة تسخط الله عليه، فينبغي على العبد ألا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً وهو الذي ظهرت فيه المصلحة، وكان فيه النفع لصاحبه أو لأخيه، ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٣)، وهذا اللسان خطره عظيم، وشره جسيم فكم هتك به من عرض، وكم فرق به بين أحبة وكم هدمت به بيوت، وكم هاجت بسببه فتن، وكم سفك به من دم، وغضب من مال فليعلم العبد أن كل كلمة تخرج من فيه فإن الله يسمعها ويعلمها فليتق الله كل امرئ في لسانه فلا يسخر، ولا يستهزئ، ولا يغتاب، ولا ينم، ولا يكذب، ولا يقذف مسلماً أو مسلمة بسوء، ولا يؤذي مسلماً أو مسلمة بكلمة خبيثة تكون سبباً في هلاك صاحبها في الآخرة قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل: «إِذَا أَخْبَرَكَ بِمَلَكَ ذَلِكَ كُلُّهُ» قلت: بلى يا رسول الله فأخذ بلسانه فقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» قلت: يا

(١) «لتحقيق كلمة الإخلاص للحافظ ابن رجب» ص [٤١]، ط. دار الفرقان بتحقيق د. أسامة عبد العظيم.

(٢) «روضة المحبين» ص [٩٧] باختصار.

(٣) رواه البخاري برقم [٦٠١٨]، ومسلم برقم [٤٧].

رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟»^(١).

قال عمر بن عبد العزيز: من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياها.

وقال بعض الحكماء: عقل المرء مخبوء تحت لسانه.

وقال بعض البلغاء: احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك، أو يتلف نفسك، فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع إلى الجواب.

وقال بعض الحكماء: من كثر كلامه كثرت آثامه^(٢).

فاتق الله في لسانك فأنت مسئولٌ غداً بين يدي الله عن كل كلمة نطقت بها فإما ثواب وإما عقاب، لذلك اجعل من لسانك جندياً تدافع به عن الدين، وتنصر به التوحيد والسنة وتدحض به الشرك والبدعة، وتقدم به النصيحة لإخوانك وتدعو به إلى الله عزَّجَل فاللسان قد يصعب حبسه لذلك وظفه في نشر الحق، هيى به جواً إيمانياً تعيش فيه فإذا جلست مجلساً تكلم عن الله وعن آيات الله ونعمه، أو اذكر قصصاً من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليكون مجلسك مجلس رحمة وخير وبركة.

خامساً - مراقبة الله في السمع:

وذلك بأن يحفظ سمعه عن سماع محرم حرمه الله عزَّجَل كالسماع إلى الغيبة أو وقوع في عرض مسلم بل ينبغي عليه أن يرد كل كلمة سوء سمعها في مسلم بغير حق عن أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من ردَّ عن عرض أخيه ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة»^(٣)، وليحذر المؤمن أن يسمع ما يفسد إيمانه كالسماع لأصحاب الأهواء

(١) رواه الترمذي برقم [٢٦١٦]، وصححه الألباني في «الإرواء» ص [٤١٣].

(٢) «أدب الدنيا والدين» للهاوردي [٢٦٦-٢٦٧] ط. جنة الأفكار.

(٣) رواه الترمذي برقم [١٩٣١]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٦٢٦٢].

من المبتدعة الذين يلبسون على الناس دينهم، ويلقون الشبهات الخبيثة الماكرة التي لا يراد من ورائها إلا صد المسلم عن الإيمان وخلعه من دينه بالكلية والعياذ بالله قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

إن من العجب العجيب أن ترى من المسلمين من يلقي سمعه وينصت إلى كلام المخرفين والمنحرفين الذين يظهرون على الشاشات للتشكيك في أصول ثابتة من ثواب الدين، ثم يأتي ويقول إنهم يقولون كذا وكذا ولمثل هذا نقول: وما الذي يجلسك لاستماعهم هل أنت في شك مما أنت عليه؟! هل أنت عالم من الراسخين الذين يتبعون تلك الشبهات لمحضها وإبطاها؟ هذا باب شر عظيم، وفساد كبير قد يكون سبباً في انتكاسك عن دينك وانسلاخك عنه عياداً بالله، إن أموالاً طائلة تنفقها القنوات الشيعية وغيرها من أجل هذا الغرض الخبيث قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

قال يونس بن عبيد: ثلاثة احفظوهم عني: لا يدخل أحدكم على سلطان يقرأ عليه القرآن، ولا يخلون مع امرأة يقرأ عليها القرآن، ولا يمكن أحدكم سمعه من أصحاب الأهواء^(١).

ومن مراقبة الله عزَّ وجلَّ في السمع حفظ السمع عن سماع الأغاني والفحش والبذاء قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحرَّ والحرير والخمر والمعازف»^(٢).

(١) «السير للذهبي» (٦/ ٢٩٣).

(٢) رواه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم برقم [٥٥٩٥].

سُئِلَ الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ عَمَّا يَرُخَصُ فِيهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنَ الْغِنَاءِ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا يَفْعَلُهُ عِنْدَنَا الْفَسَاقُ.

وقال مالك: إِذَا اشْتَرَى جَارِيَةٌ فوجدَهَا مَغْنِيَةً كَانَ لَهُ أَنْ يَرُدَّهَا بِالْعَيْبِ.

وقال الشافعي: خَلَفْتُ بِبَغْدَادَ شَيْئًا أَحَدَثَتْهُ الزَّنَادِقَةُ يَسْمُونَهُ التَّغْبِيرَ يَصْدُونُ بِهِ النَّاسَ عَنِ الْقُرْآنِ.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سَأَلْتُ أَبِي عَنِ الْغِنَاءِ؟ فَقَالَ: الْغِنَاءُ يَنْبَغُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ، ثُمَّ ذَكَرَ قَوْلَ مَالِكٍ: إِنَّمَا يَفْعَلُهُ عِنْدَنَا الْفَسَاقُ ^(١).

سادسًا - مراقبة الله في الكسب وطلب الرزق:

المؤمن طيب الخلق، طيب الكسب، طيب الظاهر والباطن، لا يمكن أبدًا أن يكسب رزقه إلا من حلال؛ لأنه موقن أن الرزق مقدر ولن يأتيه إلا ما قدره الله له، ولأنه يعلم أن كل جسم نبت من سحت فالنار أولى به، وقد حذرنا ربنا ونبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أكل الحرام فقال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وفي صحيح مسلم حين ذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء، يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذي بالحرام؛ فأني يستجاب لذلك» ^(٢).

ويدخل في أكل الحرام أمور كثيرة خبيثة مهلكة لصاحبها فمنها أكل الربا والسرقة وأكل مال اليتيم وشهادة الزور، ومن أخذ الرشوة أو إعطائها، وبيع الشيء الذي فيه عيب بدون إخبار المشتري وغش السلع عند بيعها، والتطفيف في الكيل والميزان وغير ذلك، فليراقب الإنسان ربه وليحذر كل الحذر أن يلقي الله وفي ماله جنه من حرام فوالله

(١) «إغاثة اللهفان» [٢٢٩-٢٣١]، ط. دار الإبان ارجع إليه تجد تفصيل القول في ذلك.

(٢) رواه مسلم برقم [١٠١٥].

ثم والله لأن يموت الإنسان من الجوع خير له ألف مرة من أن يلقاه وفي بطنه كسب حرام، فنعوذ بالله وبالله نعوذ أن نلقاه على ذلك الحال.

سابعاً - مراقبة الله في الخلوات:

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، معكم بعلمه وسمعه وبصره وإحاطته، ولا يغيب عنه شيء من أمركم قط، وآه من خبث الخلوات في هذا الزمان! فكم من الغافلين الخائنين إذا خلوا عن أعين الناس إذا بهم يجترئون على معصية الله ولا يباليون بنظر الله فهذا صنف يتصيد أعراض المسلمين ويخون مسلماً في ابنته أو أخته وذاك خلا في الليل يتتبع العورات ويلهث وراء الفتيات، وذلك عكف أمام شاشة شائنة يخبث بنظراته الخائنة، ويفجر بتلك النظرات ناسياً نظر الله إليه، وذاك جلس أمام شبكة عنكبوتية يدخل من خلالها إلى بيوت آمنة فيحدث فيها فساداً عريضاً، فلهؤلاء وأمثالهم نقول: إذا كنت تخشى من نظر المخلوقين وتستحي أن يراك على حالك ويعلم به أحد الناس؛ فكيف لا تخشى نظر الله إليك وإطلاع الله عليك؟! كيف لا تستحي من ربك وهو يراك ويسمعك؟!

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غداً للناظرين قريب

إنني أخشى عليك أن تحتّم حياتك بسوء بسبب سوء طويتك قال الحافظ ابن رجب عليه رحمة الله: خاتمة السوء تكون بسبب دسيئة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس.

فليكن حالك أخي كما قيل:

سري كإعلاني وتلك خليقتي وظلمة ليلي مثل ضوء نهار

قال بعض العلماء: ذنوب الخلوات تؤدي إلى الانتكاسات وطاعة الخلوات طريق للثبات حتى الممات.

هل فهمت أخي هذه العبارة إذا أردت الثبات على الإيمان والموت على الطاعة فيايك إياك ومعاصي السر فإنها شؤم عليك وهلاك لك فأنقذ نفسك من عذاب الله بمراقبته عَزَّجَلَّ في السر والعلن، في الخلوة والجلوة.

ما أحلم الله عمن لا يراقبه	كلٌ مسيءٌ ولكن يعلم الله
فاستغفر الله مما كان من زللٍ	طوبى لمن كفَّ عما يكره الله
طوبى لمن حسنت سريره	طوبى لمن ينتهي عما نهى الله

فراقب الله في خلوتك فربك لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء فاحذر أن يمتكت ويطردك عن طاعته بسبب جرأتك على معصيته في الخلوات وجعله عَزَّجَلَّ أهون الناظرين إليك.

ثامناً - مراقبة الله عند الغضب:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رجلاً قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصني قال: «لا تغضب فردد

مراراً قال: لا تغضب»^(١).

الإنسان إذا غضب وتمادى به غضبه فإنه ينغمس في أخطاء كثيرة يشتر ندمه عليها بعدما يفيق من غضبه، وفي لحظة الغضب قد يطلق امرأته، وقد يقطع رحمه وقد يغضب حقاً ليس له، وقد يرمي بريئاً بسوء، أو يقذف عرصاً بهتاناً أو ينتقم لنفسه بأن يظلم ويتعدى حدود الله لذلك كانت هذه الوصية أن يراقب الإنسان ربه عند الغضب وذلك بأن يتمالك نفسه ويستعيد بالله من الشيطان الرجيم ويكظم غيظه ويخرج من ذلك المكان إلى غيره حتى تهدأ ثورته عن سليمان بن صرد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت جالساً عند النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورجلان يستبان وأحدهما قد احمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد» فقالوا له: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «تعوذ بالله من الشيطان الرجيم»^(١)، وليستحضر العبد ثواب الله عَزَّجَلَّ إذا كظم هذا الغيظ ابتغاء وجه الله، ورد الغضب اتقاء لربه ومولاه روى أبو داود والترمذي بسند حسن عن معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غِيظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْفِذَهُ دَعَا اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى رِعْوَسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَخْيِرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ»^(٢)، لذلك إذا غضبت تذكر قدرة الله عليك، وإطلاعه عليك ونظره إليك وإياك أن يكون غضبك وبألاً عليك بين يدي الله في الآخرة.

صور من المراقبة

القدوة الصالحة تبعث على التأسى وتدفع المؤمن الصادق إلى الاقتداء والاهتداء بأخلاق الموفقين من عباد الله، والمواقف الإيمانية تربي وتهذب إذا لاحظها المرء بعين الاعتبار قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يُوسُف: ١١١]، ليست هذه المواقف التي أسردها في هذا الموطن وغيره مجرد حكايات نتسلَّى بها ونستمع بسردها كلا إنما حجة من الله علينا، ودعوة إلى الفرار إلى الله وامتنال أمره، ومن هذه المواقف التي نذكرها في باب المراقبة ما يلي:

أولاً - الكريم بن الكريم

إنه الكريم بن الكريم بن الكريم بن يوسف الصديق بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه يقول ربنا العليم الحكيم في كتابه

(١) رواه البخاري برقم [٦١١٥]، ومسلم برقم [٢٦١٠].

(٢) رواه أبو داود برقم [٤٧٧]، والترمذي برقم [٢٠٢١]، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» برقم

الكريم: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْبَقَ الْأَبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْأَبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يُوسُفُ: ٢٣-٢٩]، تأمل هذا الإيمان، وهذا الثبات، وهذا اليقين، وتلك المراقبة في هذا الموقف الذي ينطق بروعة الصدق في الإيمان واليقين بمراقبة الله جَلَّالُهُ انتصر يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ على دواعٍ قوية للوقوع في المحرم وثبت وصبر عن الفحشاء مراقبة لربه وخشية له، تأمل هذه الدوافع لتعلم عظمة المراقبة لله جل جلاله:

١- لقد كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ شابًا والشباب مركب الشهوة.

٢- كان عزبًا وليس عنده ما يعوضه.

٣- كان غريبًا والغريب لا يستحي مما يستحي منه المقيم.

٤- كان غلامها وتحت تدبيرها والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر.

٥- هي سيدته وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك.

٦- كانت هي الطالبة وأظهرت الرغبة التامة بالمرادة.

٧- تحققت الخلوة التامة وغلقت الأبواب.

٨- جاءت بالرغبة والرغبة وألحت في مرادها وقدت قميصه.

٩ - كان زوجها ديوثاً لا يغار وعلم هذا من قوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ [يُوسُفُ: ٢٩]. وكذلك من تركها تخلو به بعد أن وقع ذلك حتى راودته النسوة ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يُوسُفُ: ٥١].

١٠ - توعده بالسجن إن لم يفعل ما تأمره به، وقد سجن يوسف فعلاً وآثر السجن على ارتكاب ما حرم الله^(١).

إن هذا النبأ الكريم حجة على شباب الأمة الذين غرقوا في الشهوات وباتوا يلهثون وراء المحرمات؛ فليكن لهم هذا المشهد عظة وعبرة تردع السادر السفیه عما هو فيه، وترد المؤمن إلى إيمانه وتأخذ بناصيته إلى رضوان الله بحسن مراقبته جلّ جلاله.

ثانيًا - الفاروق الأب عمر بن الخطاب:

عن قتادة قال: لما ورد عمر الشام صنع له طعام لم يرقبه مثله فلما أوتى به قال: هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين باتوا لا يشبعون من خبز الشعير؟ فقال خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لهم الجنة، فاغرو رقت عيناه فقال: إن كان حظنا في هذا ويذهب أولئك بالجنة لقد بانوا بونا بعيداً^(٢).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوماً وخرجت معه حتى دخل حائطاً فسمعتة يقول وبينه وبيته جدار وهو في جوف الحائط: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين! بخٍ بخٍ والله لتتقين الله يا ابن الخطاب أو ليعذبنك^(٣).

وعن قتادة قال: كان معيقب على بيت مال عمر فكسح بيت المال يوماً فوجد فيه درهماً فدفعه إلى ابن عمر قال معيقب: ثم انصرف إلى بيتي فإذا رسول عمر قد جاء

(١) انظر «روضة المحبين» لابن القيم [٢٧٧-٢٧٨] و«تفسير السعدي» [٤٤٦].

(٢) «محض الصواب في فضائل عمر بن الخطاب» ليوסף بن حسن المبرد (٢/ ٦٢٤)، ط. الجامعة الإسلامية قال: وفيه انقطاع لأن قتادة لم يسمع من عمر.

(٣) «الموطأ» لمالك بن أنس رقم [١٨٠٠] (٢/ ٩٩٢)، ط. دار إحياء التراث العربي.

يدعوني، فجئت فإذا الدرهم في يده فقال: ويحك يا معيقب أوجدت عليّ في نفسك سبباً؟ أو مالي ومالك؟ فقلت: وما ذاك؟ قال: أردت أن تخاصمني أمة محمد في هذا الدرهم يوم القيامة^(١).

ثالثاً - شاهد من الأُمم الماضية:

في حديث الثلاثة الذين أوأهم المبيت إلى غار تجد معنى المراقبة ظاهراً لا سبياً في حال هذا الذي كف عن ابنة عمه التي كان يحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ولكن تقواه لله ومراقبته له ردعته عن ذلك الفعل حين ذكر بالله، وفي حال الثالث يكون معنى المراقبة واضحاً جلياً حيث قال: اللهم إني استأجرت أجراً وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إليّ أجري فقلت: كل ما ترى من أجرك؛ من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي فقلت: لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون^(٢).

وفي خبر الأبرص والأقرع والأعمى الذين أراد الله تعالى أن يبتليهم فأرسل إليهم ملكاً فأعطى أحدهم وادياً من الإبل والآخر وادياً من البقر والثالث وادياً من الغنم وشفى كل منهم من مرضه ولكن خذل اثنان منهم وفاز واحد فقط؛ لأنه راقب ربه ومولاه قال رسول الله ﷺ: «أتى (أي الملك) الأعمى في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري؟ فقال: قد كنت أعمى فردَّ الله إليّ بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله ما أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عزَّ وجلَّ فقال: أمسك عليك مالك فإنما

(١) «مناقب عمر» لابن الجوزي. [١٠٦]، وفي السند انقطاع.

(٢) رواه البخاري برقم [٢٢١٥]، ومسلم برقم [٢٧٤٣].

ابتليتكم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبك»^(١)، إنه لم ينكر نعمة الله عليه ولم يحدد فضل الله الذي آتاه ولم يمنع ماله عن محتاج بخلاً وشحاً؛ لأنه علم أن المال من الله وأن المال وسيلة لإقامة العبودية لله وليس غاية يسعى إليها ثم يصير همًا مسيطرًا وبلاء يشتت صاحبه ويهدم إيمانه، وذلك إذا جعل المال في قلبه، أما إذا جعله في يده، وأهلكه في الحق، ونفع به الخلق؛ فنعم المال الصالح للرجل الصالح!

رابعاً - راع في الفلاة يراقب مولاه:

عن عبد الله بن دينار قال: خرجت مع ابن عمر إلى مكة فعرسنا فانحدر علينا راع من جبل فقال له ابن عمر: أراع؟ قال: نعم، قال: بعني شاة من الغنم قال: إني مملوك، قال قل لسيدك: أكلها الذئب - يريد أن يختبره - قال: فأين الله عزَّجَلَّ؟ قال ابن عمر: فأين الله؟! ثم بكى ثم اشتراه بعد فأعتقه.

وفي رواية: فأعتقه واشترى له الغنم^(٢).

إن للتقي حاجزاً ومانعاً يمنعه من معصية ربه في كل موطن، فهو أينما ذهب وأنى اتجه يعلم ويوقن أنه لا يغيب عن ربه جَلَّ جَلَّالُهُ ولذلك فهو يراقب ربه السميع العليم في كل آن وحين، ويخشى أن يراه الله على معصيته فيبوء بغضبه أو عذابه، فهو حي القلب يقظ الضمير، خاشع الفؤاد، ذليل الطرف، ودائم الذكر والاستغفار والذل والانكسار بين يدي الملك العزيز الغفار.

عن عمران بن خالد قال: قال الحسن البصري: إن المؤمن يصبح حزينا ويمسي حزينا، ولا يسعه غير ذلك لأنه بين مخافتين، بين ذنب قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه، وبين أجل قد بقى لا يدري ما يصيب فيه من المهالك^(٣).

(١) رواه البخاري برقم [٣٤٦٤]، ومسلم برقم [٢٩٦٤].

(٢) «السير للذهبي» (٣/٢١٦)، ط. الرسالة.

(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٢/١٣٢).

وعن طلحة بن صبيح عن الحسن البصري قال: المؤمن من يعلم أن ما قال الله عزَّ وجلَّ كما قال، المؤمن أحسن عملاً، وأشد الناس خوفاً، لو أنفق جبلاً من مال ما أمن دون أن يعاين، ولا يزداد صلاحاً وبراً وعبادة إلا ازداد فرقاً، يقول: لا أنجو والمنافق يقول: سواد الناس كثير، وسيغفر لي ولا بأس عليّ، وينسى العمل، يتمنى على الله تعالى (١).

خامساً - مراقبة الله عند مضارقة الحياة:

لا يتخلى المؤمن عن مراقبة ربه ما دامت به حياة، وما ترددت في صدره الأنفاس تأمل هذا المشهد الكريم لصحابي كريم من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا وهو عبد الله ابن عمرو بن العاص وذلك حينما حضرته الوفاة تذكروا وعداً قد وعده بعض الناس فأمر بإنجاز الوعد حتى لا يلقي الله وفي عنقه وعد لمسلم ما وفى به، عن هارون بن رثاب أن عبد الله بن عمرو لما حضرته الوفاة قال: انظروا فلاناً - لرجل من قريش - فإني كنت قد قلت له في ابنتي قولاً كشييه العدة، وما أحب أن ألقى الله تعالى بثلاث النفاق، وأشهدكم أنني قد زوجته (٢).

سرائر المتقين

من امتلأ قلبه بالإيمان كانت سريره كعلائته بل أفضل، وإذا خلا وحده في مكان أقبل بكل قلبه على ربه، وعكف بجوارحه متبتلاً إليه متضرعاً بين يديه، يجد أنسه وراحته وقرّة عينه بذكر الله وتلاوة كلامه، يجد السكينة والطمأنينة وطيب الحياة في التضرع والتذلل بين يدي الله، وطول القنوت والمناجاة، فهو يقظ القلب، حي الضمير، مرفه الحس، نير الفؤاد، لا يسعده ولا يفرحه إلا الإقبال على الطاعة لربه جَلَّ جَلَّالُهُ، تعالوا إخوتي ننظر في سيرة أصحاب السرائر النقية التي عمرت بما يرضي الله جَلَّ جَلَّالُهُ.

(١) المصدر السابق (٢/ ١٥٣).

(٢) «السير» (٨/ ٣٩٦).

عن شيبه بن نعام قال: كان علي بن الحسين يُبخل فلما مات وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة.

وعن محمد بن إسحاق قال: كان ناسٌ من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به بالليل.

وعن أبي حمزة الثمالي قال: كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق به ويقول: إن صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل^(١).

قال محمد بن واسع: لقد أدركت رجلاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بلّ ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجلاً يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده لا يشعر به الذي إلى جنبه.

وهذا حسان بن أبي سنان تقول عنه زوجته: كان يجيء فيدخل في فراشي ثم يخادعني كما تخادع المرأة صبيها فإذا علم أنني نمتُ سلّ نفسه فخرج ثم يقوم فيصلّي قالت: فقلت له: يا أبا عبد الله كم تعذب نفسك، ارفق بنفسك فقال: اسكتي ويحك، فيوشك أن أرقد رقدة لا أقوم منها زماناً.

ولله درُّ من قال:

ليس الخمول بعارٍ على امرئ ذي كمالٍ
فليلة القدر تخفى وتلك خير الليالي

قال أحمد بن الصلت: سمعت بشر بن الحارث يقول: غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه، وإخفاء مكانه عنهم.

قال أبو بكر محمد بن الفياض سمعت زريقاً الدلال يقول: سمعت بشر بن الحارث يقول: اللهم استر، واجعل تحت الستر ما تحب، فربما سترت على ما تكره.

(١) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (١/٣٧٦)، ط. دار المنار.

وعن عباس بن دهقان قال: قلت لبشر بن الحارث: أحب أن أخلو معك قال: إذا شئت، فبكرت يوماً فرأيتَه قد دخل قبة فصلى فيها أربع ركعات لا أحسن أن أصلي مثلها، فسمعتَه يقول في سجوده: اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الذل أحب إليّ من الشرف، اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الفقر أحب إليّ من الغنى، اللهم إنك تعلم فوق عرشك أني لا أؤثر على حبك شيئاً، فلما سمعته أخذني الشهيق والبكاء، فلما سمعني قال: اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن هذا هاهنا لم أتكلم.

وكان بشر يقول: طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره^(١).

قال أبو أسامة: دخلت على محمد بن النضر الحارثي فرأيتَه كأنه منقبض فقلت: كأنك تكره أن تؤتى؟ قال: أجل، فقلت: أو ما تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني؟!

وقيل لمالك بن مغول وهو جالسٌ في بيته وحده: ألا تستوحش؟! فقال: أويستوحش مع الله أحد؟!

وكان حبيب أبو محمد يخلو في بيته ويقول: من لم تفر عينه بك فلا قرّت عينه، ومن لم يأنس بك فلا أنس.

وقال غزوان: إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من لديه حاجتي.

وقال مسلم بن يسار: ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله عزّ وجلّ.

وقال مسلم العابد: لولا الجماعة ما خرجت من بابي أبداً حتى أموت وقال: ما يجد المطيعون لله لذة في الدنيا أحلى من الخلوة بمناجاة سيدهم، ولا أحسب لهم في الآخرة من عظيم الثواب أكبر في صدورهم وألذ في قلوبهم من النظر إليه، ثم غشي عليه.

قال إبراهيم بن أدهم: أعلى الدرجات أن تنقطع إلى ربك وتستأنس إليه بقلبك وعقلك وجميع جوارحك حتى لا ترجو إلا ربك، ولا تخاف إلا ذنبك، وترسخ محبته في قلبك حتى لا تؤثر عليها شيئاً، فإذا كنت كذلك لم تبال في بر كنت أو في بحر أو في سهل أو في جبل، وكان شوقك إلى لقاء الحبيب شوق الظمان إلى الماء البارد، وشوق الجائع إلى الطعام الطيب، ويكون ذكر الله عندك أحلى من العسل، وأحلى من الماء العذب الصافي عند العطشان في اليوم الصائف.

وقال الفضيل: طوبى لمن استوحش سوى من الله وكان الله جليسه.

وقال أبو سليمان الداراني: لا أنسني الله إلا به أبداً.

وقال معروف لرجل: توكل على الله حتى يكون جليسك وأنيسك وموضع شكواك.

وقال ذو النون: من علامة المحبين لله أن لا يأنسوا بسواه، ولا يستوحشوا معه ثم قال: إذا سكن القلب حب الله تعالى أنس بالله؛ لأن الله تعالى أجل في صدور العارفين أن يحبوا سواه^(١).

وعن أم عبدان امرأة هشام بن حسان قالت: كنا نزولاً مع محمد بن سيرين في الدار فكنا نسمع بكاءه بالليل وضحكه بالنهار.

عن عبد الله بن السري قال: قال ابن سيرين: إني لأعرف الذنب الذي حمل به عليّ الدين ما هو؛ قلت لرجل منذ أربعين سنة: يا مفلس. فحدثت به أبا سليمان الداراني فقال: قلت ذنوبهم فعرفوا من أين يؤتون وكثرت ذنوبي وذنوبك فليس ندري من أين نؤتى^(٢).

(١) «جامع العلوم والحكم» للحافظ ابن رجب، ص [٩٠]، ط. دار ابن رجب.

(٢) «صفة الصفوة» (٣/ ٢٤٦)، ط. دار الوعي.

وعن أبي جعفر الحذاء قال سمعت ابن عيينة يقول: إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العدل وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الفضل، وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجور^(١).

وقيل لحمدون بن أحمد: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق^(٢).

الابتلاء بتيسير أسباب المعصية

قد يتلى العبد بأن تجعل المعصية قريبة منه سهلة ميسورة، قد تهيأت لفعلها كل الأسباب المتاحة وذلك ليعلم الله من يخافه بالغيب ومن يراقبه سبحانه ويخشاه، وفي مثل هذا الموطن يظهر صدق الإيمان من كذبه، ويظهر ثبات المؤمن وانتكاس الغافلين الخائنين ولو تأمل المرء في حياته لوجد كثيرًا من مثل هذه النماذج قد ابتلي بها في سالف عمره أو يتلى بها في حاضره وسوف يتلى بها في مستقبله، وحتى يتجلى هذا المعنى أكثر أورد أمثلة لذلك من كتاب الله عز وجل ثم اتبع ذلك بشواهد من واقع الحياة.

من أمثلة ذلك في كتاب الله عز وجل ما يلي:

قول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَبَّوْاْكُمْ اَللّٰهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ اَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اَللّٰهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الْمَائِدَة: ٩٤]، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لا بد أن يختبر الله إيمانكم، ﴿لَبَّوْاْكُمْ اَللّٰهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾ أي: شيء غير كثير فتكون محنة يسيرة تخفيفًا منه تعالى ولطفًا وذلك الصيد الذي يتليكم الله به ﴿تَنَالُهُ اَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أي: تتمكنون من صيده ليتم بذلك الابتلاء، لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح فلا يبقى للابتلاء فائدة، ثم ذكر الحكمة في

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ٢٣٤).

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٢٢).

ذلك الابتلاء فقال: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ علماً ظاهراً للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب، ﴿مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ فيكف عما نهى الله عنه مع قدرته عليه وتمكنه فيثيبه الثواب الجزيل، ممن لا يخافه بالغيب، فلا يرتدع عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه ﴿فَمَنْ أَعَدَّى﴾ منكم بعد هذا البيان الذي قطع الحجج وأوضح السبيل ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم موجه لا يقدر على وصفه إلا الله لأنه لا عذر لذلك المعتدي والاعتبار بمن يخافه بالغيب وعدم حضور الناس عنده وأما إظهار مخافة الله عند الناس فقد يكون ذلك لأجل مخافة الناس فلا يثاب على ذلك^(١).

قد يخرج المرء محرماً بحج أو عمرة ومن المعلوم أنه حينئذ لا يجوز له أن يصطاد صيد البر ولكنه يتلى بأن يأتيه صيد فيكون قريباً منه جداً ومن السهولة بمكان أن يرميه بسهم أو أن يمسك به وقد يكون هذا المحرم جائعاً والصيد ثمين سمين سيسد جوعته ويغنيه وفي هذا الموطن يظهر الإيمان فيكف المؤمن الصادق عن هذا الصيد خوفاً من ربه جَلَّ جَلَالُهُ.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الإعراف: ١٦٣].

روى الطبري عن قتادة أنه قال: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ ذكر لنا أنه إذا كان يوم السبت أقبلت الحيتان حتى تتبطح على سواحلهم وأفنيتهم، لما بلغها من أمر الله في الماء، فإذا كان في غير يوم السبت، بعدت في الماء حتى يطلبها طالِبهم فأتاهم الشيطان فقال: إنها حرم عليكم أكلها يوم السبت فاصطادوها يوم السبت وكلوها فيما بعد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» لعبد الرحمن بن ناصر السعدي [٢٥٩]، ط. دار ابن الجوزي.

عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ ﴿[الْإِنْفِرَات: ١٦٤]﴾، صار القوم ثلاثة أصناف، أما صنف فأمسكوا عن حرمة الله ونهوا عن معصية الله، وأما صنف فأمسك عن حرمة الله هيبه لله، وأما صنف فانتهاك الحرمة ووقع في الخطيئة^(١).

والشاهد من ذلك أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لما حرم عليهم الصيد يوم السبت وأباحه له بقية الأيام وقد ابتلاهم ربهم بأن وجدوا الأسماك تأتي في يوم السبت ظاهرة على وجه الماء وقريبة من الشواطئ وتراها أعينهم ويسهل عليهم صيدها جدًا وهذا ابتلاء وامتحان إيمانهم بالله ومراقبتهم له، ولكنهم فشلوا وزلوا وسقطوا في هوة المعصية الأثيمة؛ فاستحقوا انتقام الله وعذابه ومسخهم الله إلى قردة وخنازير وما نجا من عذاب الله إلا من سلم من ارتكاب المحرم وراقب ربه ومولاه جَلَّ جَلَالُهُ.

ومن أمثلة الابتلاء بتيسير المعصية ما وقع لطائفة أخرى من بني إسرائيل بعد نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهم الطائفة الذين خرجوا للقتال مع الملك الصالح طالوت، وبين لهم نبي الله طالوت أنه سيعترض طريقهم نهر من الماء العذب وهم عطاش لكن عليكم ألا تشربوا منه إلا غرفة واحدة ولكن أكثرهم ما صبروا عن الشرب من هذا الماء القريب من أيديهم وفي هذا قال ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّكُم مَّبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البَقَرَةُ: ٢٤٩].

ومن أمثلة هذا في الواقع أن يجد إنسان خلوة بامرأة ما وتكون الظروف كلها مهيئة لينال منها حرامًا ولا يجد منها هي مانعًا ولكن إذا راقب الله وتذكر أن الله يسمعه ويراه انزجر وانصرف عن هذا الموطن فورًا من قبل أن تمسه النار.

ومن أمثلة ذلك أن يدخل أحد الناس على موظف لينال منه توقيعا يأخذ به حقا ليس له ثم يقدم بين هذه الأوراق ورقة بمائتي جنيه ولن يكلفه الأمر شيئا فقط عليه أن يوقع ولكن إذا استحضر نظر الله إليه ارتجف قلبه وخاف أن يدخل جسده مالا حراما أو أن يخبث ماله ورزقه بهذا الخبث فيدفعه ويرفضه وأما إن كان غافلا جاهلا فإنه سوف يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل.

ومن أمثلة ذلك أن تقع في يده أوراق يستطيع من خلالها غضب حق ليس له فيقتنص الفرصة ويسارع بأكل أموال الناس ظلما وسحتا وقد حدثني بعض الناس بأنه ظل يعمل خارج البلاد قرابة خمسة عشر عاما وكان قد استأمن قريبا له وكان - كما يقول هو - من أقرب الناس إليه نسباً ورحماً وبعد هذه السنوات الطويلة إذ به يفاجأ بأن قريبه قد غضب منه كل ما يملك وسجله باسمه هو حيث لا مستند لصاحب الحق ولا دليل يبين ملكيته لهذا المال، ففقد كل ما يملك والسبب خيانة قريبه له عندما وجد المال سهلاً ميسوراً في يده فسطا عليه وغضبه.

ومن أمثلة ذلك أن يجري أحد الموظفين جرّداً لحسابات خزانة المؤسسة أو غير ذلك فيجد أن ثمة مال زائد تنضبط الحسابات بدونه وإن أخذه فلن يكتشف أحد الأمر فإذا أخذه فقد خان وأكل الحرام واستحق من الله العقاب إن لم يتب ويسارع برد الحق إلى أصحابه.

ومن أمثلة ذلك أن يقدم أحد الشباب على خطبة فتاة ثم بسبب جهل أهلها يترك في خلوة معها بل وتغلق عليه وعليها الأبواب بحجة أنها مخطوبان فيفعل الأثيم معها كل محرم ثم يدعها بعدما تلطخ بإثمها وإثم أهلها وهذا واقعٌ فعلاً في حياة الغافلين الجاهلة الذين لا يعرفون من الإسلام إلا ما يوافق الأعراف والتقاليد ولقد حدثني بعض الإخوة

الدعاة أن سائلاً أتاه فقال بأنه يريد أن يترك خطوبته قال: لم؟ قال: إنها ليست بكرًا، قال: كيف عرفت؟ قال: لقد جامعتها فاكشفت ذلك، فقال: هذا زنا هذا حرام!! فقال: إن هذا قد تم بعلم أمها!

أرأيت لو راقبنا الله حقًا أيكون هذا حالنا؟! أرأيت لو اتقينا الله أكان الأمر يصل بنا إلى هذا الدرك المزري؟!

ومن النماذج التي يقع فيها الابتلاء بتيسير أسباب المعصية أن يحتاج إنسان إلى مال ويظل يبحث عمن يقرضه فلا يجد وتغلق أمامه كل الأبواب ثم يعود إلى بيته فيجد من يطرق عليه بابه ويقدم له ما يريد من المال ولكن بشرط أن يرده بزيادة ربوية، سبحانه الملك تغلق كل الأبواب المباحة ثم يفتح هذا الباب المحرم ويأتيه إلى داره بسهولة ويسر فإن كان تقيًا مراقبًا لربه رفض أن يأخذ من هذا المال شيئًا وإن حدث ما حدث، أما إن كان خوارًا سفيهاً ضعيف الإيمان فإن يده ستمتد لتلوث ماله ونفسه بالربا ويستجلب لنفسه لعنة الله عيادًا بالله.

والأمثلة في الواقع كثيرة لها أكثر من لون وتشكل في أكثر من صورة لكنها تلتقي كلها في هذا المعنى أن يتلى المرء بمعصية يسهل عليه فعلها ليختبر الله إيمانه ويبلو صدقه وتقواه ليميز الله الخبيث من الطيب، والتقي من الشقي، والمهتدي من الغوي، فاتق الله واعلم أن الله معك حيث كنت، واحفظ الله يحفظك، واعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، كما أوصانا بذلك سيد الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

السبيل إلى مراقبة الله

كيف يزداد العبد مراقبة لربه؟ وكيف يقوي في نفسه ملكة المراقبة لله جَلَّ جَلَالُهُ؟ إن المراقبة عملٌ إيماني قلبي يزداد بزيادة الطاعات وينقص بالمعاصي والسيئات. ومن الوسائل التي تقوي المراقبة في القلب وتستجلبها ما يلي:

١ - علم العبد وتيقنه بصفات الرب جَلَّ جَلَالُهُ؛

فإن الله جَلَّ جَلَالُهُ لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عنه شيء فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [البَّاقَرَةُ: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غَافِرٌ: ١٩]، فمهما توارى العبد واختبأ واختفى واستتر فلن يغيب كيده وعصيانته عن الله أبداً.

يا كاتم الذنب ومخفيه أين من الله تواريه
بارزت بالعصيان رب العلا وأنت من جارك تخفيه
وعن أبي حامد الخلفاني أنه أنشد الإمام أحمد هذين البيتين:

إذا ما قال لي ربي أما استحييت تعصيني
وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتيني
فأمره بإعادتهما فأعادهما عليه فدخل أحمد داره وجعل يرددتهما ويبيكي.

فإذا استشعر العبد نظر الله إليه استحيًا من أن يراه الله على قبيح فعله كما قيل: إن كنت تعتقد أن الله لا يراك وأنت تعصيه فما أعظم كفرك بالله وإن كنت تعتقد أن الله يراك وأنت تعصيه فما أعظم جرأتك على الله، وما أقل حيائك من الله جَلَّ جَلَالُهُ!!

كذلك ليعلم العبد قدرة الله عليه وأن الله عَزَّ وَجَلَّ شديد العقاب فليحذر العبد أن يأتيه عذابٌ أليم وذل مقيم، فكم من معصية أهلكت وأوقعت، كم من معصية أذلت

وأذهلت! كم من معصية جلبت عارًا وخربت ديارًا وهدمت بيوتًا! كم من معصية يتجرع أهلها الحرمان والهوان والخسران والندم والحسرات!! قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هُود: ١٠٢].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال جل وعلا: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وفي قصص الأنبياء مع قومهم بيان لا تنتقام الله ممن عصاه وبيان لعاقبة الكبر والتكذيب، والعناد والعصيان ونعوذ بالله من الخذلان تأمل فيها وتدبر تجد ما يردعك، تأمل تر فيها ما يزعرك عن معصية الله ويدفعك إلى طاعة الله والذل له جلَّ جلاله ومراقبته سبحانه في السر والعلن

عليك منك إذا ما خلوت مرتقبُ فلا تأت في السر ما لم تأت إعلاناً

٢- استحضار شهود الجوارح على العبد بين يدي الله:

إن الجوارح تنطق يوم القيامة وتشهد على العبد بين يدي الله بما اقترف من آثام، وبما أحدث من ذنوب وعصيان فالألسنة تشهد والأيدي تشهد، والأرجل تنطق وتشهد، والجلود تشهد، فيأله من موقف حين تتكلم الجوارح وتخبر بما اجترحه العبد في دنياه، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمْ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ لَاجِلُورِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يَس:٦٥].

وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضحك فقال: «هل تدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: يارب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: إني لا أجزى على نفسي إلا شاهداً مني قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً، ثم يختم على فيه فيقال لأركانها: انطقي قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلي بينه وبين الكلام، قال فيقول: بعداً لكنّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل»^(١).

فإذا استشعر العبد أن هذه الجارحة التي عصى بها ربه ومولاه، وتعدى بها حدود الله تكون خصماً له يوم القيامة فتشهد عليه بما عمل وتقر بين يدي الله وتعترف بما جناه صاحبها واقترف فيا لها من حشرات حينما يفاجأ بأن أعضائه تنطق وتخبر بما عملته من سيئات والله لو استحضر هذا المعنى لانزجر عن كثير من سيئات عمله وقبيح كسبه وفعله.

٣- العلم بأن ثمن المراقبة الجنة:

قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾^(٢١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِظٍ^(٢٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْبَاعِثَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿[ق: ٣١-٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، ففي هذه الآية يخبر الله تعالى عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات حيث لا

يراه أحدٌ إلا الله تعالى بأنه ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: تكفر عنه ذنوبه ويجازى بالشواب الجزيل ^(١).

قال الإمام أحمد: الفتوة ترك ما تهوى لما تحشى. وقال مجاهد بن جبر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [البقرة: ٤٦]، قال: هو الرجل يخلو بمعصية الله فيذكر مقام الله فيدعها فرقاً من الله.

عن شقيق بن سلمة: أنه تلا هذه الآية: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [يونس: ١٨]، قال: لقد علمت أن التقي ذو نية.

يعني إذا ذُكر بالله ذكره وانزجر عن معاصيه وذلك لتقواه لله ومراقبته له جَلَّ جَلَالُهُ وهذا كما قيل:

يتجنب الهفوات في خلواته عَفُ السَّريرة غيبه كالشهد

وقال بشر بن الحارث: لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطاً من حديد.

٤ - عمارة الأوقات والخلوات بأنواع الطاعات،

من عمَّر وقته بطاعة ربه وشغل جوارحه بها ألفت الطاعة، وأنفت من المعصية؛ لأن من بركة الطاعة أن تستجلب مثلها ومن شؤم المعصية أنها تورث معاصي آخر وتعمي القلوب عن الحق، والتقي الأريب هو من جعل الخلوات مليئة بالذكر والتضرع والدعوات لاسيما في زمن انتشار الفتن وإحاطتها بالعبد أنى ذهب، فإذا خلا بنفسه فهي غنيمة ثمينة كريمة حيث يجد فرصة ليتلو كلام الله ويتدبره وأن يتعلم علماً ينفعه أو ينظر في سيرة الصالحين فيتأسى بهم أو يتفكر في خلق الله وحال الخلق من حوله ويتأمل حاله مع ربه ويحاسب نفسه ليدفعها إلى مزيد من العمل ويزجرها عن تناقلها وقعودها عن

(١) «المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير» ص [١٤٢٦]، ط. دار السلام.

طاعة الله جلَّ جلاله قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: لا بد للعبد من أوقات ينفرد فيها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذا يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه إما في بيته كما قال طاووس: نعم صومعة الرجل بيته يكف فيها بصره ولسانه، وإما في غير بيته ^(١).

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: من أحب أن يفتح الله قلبه أو ينوره فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه واجتناب المعاصي ويكون له خبيئة فيما بينه وبين الله تعالى من عمل.

فإذا شغلت الجوارح بالطاعات وشغف بها القلب لم يكن ثمة مكان لغيرها لأن المشغول لا يشغل.

قال الحسين بن مطير:

ونفسك أكرم عن أمور كثيرة فما لك نفس بعدها تستغيرها
ولا تقرب المرعى الحرام فإنما حلاوته تفضى ويبقى مريرها

٥- العلم بأن عدم المراقبة سبب لسوء الخاتمة:

يقول صديق حسن خان: طول الإلف للمعصية يقتضي تذكرها عند الموت وعودها في القلب وتمثلها فيه، وميل النفس إليها وإن قبض روحه في تلك الحال ينجس له بالسوء ^(٢).

ويقول الحافظ ابن رجب عليه رحمة الله: خاتمة السوء تكون بسبب دسياسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيئ لا يطلع عليه أو من جهة اعتقاد سيئ ونحو ذلك فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت ^(٣).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٤٢٦).

(٢) «يقظة أولي الاعتبار» ص [٢٠٥-٢٠٦].

(٣) «جامع العلوم والحكم» ص [١٢١]، ط. دار ابن رجب.

فيا أخ، انتبه من غفلتك، وعد إلى الله من قريب؛ فإن ثمار المعاصي مرة، وعقاب الله عليها شديد، ولن تخفى عن الله ذرة من عملك قط، فالله يقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فأعمالك تحصى عليك، وسوف يحاسبك الله عن كل لفظة، وعن كل خطوة، وعن كل نظرة، وعن كل ما اقترفت يداك إن خيراً فخير وإن شراً فشر قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَمْلِكُ الْحَقُّ ﴿﴾ [الأنعام: ١١٥-١١٦].

وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

فيا أيها الغافل تيقظ

تنام ولم تنم	عنك المنايا	تنبه للمنية	يا نؤوم
تموت غداً	وأنت قريير عين	من الغفلات	في لجج تعوم
لهوت عن الضناء	وأنت تفتنى	وما حي على الدنيا	يدوم

فمن لم يراقب الله خذل، ومن جعل الله أهون الناظرين إليه فقد خسر وضل، ومن لم يتق الله ضاع قدره وخسر نفسه وذل.

٦ - معرفة أن المراقبة من سبل النجاة:

مراقبة العبد لربه تنجيته، ومعصيته ومخالفة أمره تهلكه وترديه، ومن راقب الله حفظه من كل مكروه وسوء في الدنيا ومن العذاب في الآخرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلن، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى»^(١)، وفي زمننا هذا الذي انتشرت فيه الفتن، وهلك بسببها كثير من الهالكين هناك حصون أمان وموائل اطمئنان يأوي إليها الصادقون فيجدون في ظلها قرة العين وراحة البال،

(١) «مسند الشهاب» (١/ ٢١٤) برقم [٣٢٥]، وصححه الألباني في «الصحيحة» [١٨٠٢].

وطمأنينة القلب ومن ذلك الالتفاف حول العلماء الربانيين والسماع منهم، وديمومة المراقبة لله في السر والعلن، وفي طاعة الله في بيوت الله حيث يتلى القرآن، ويذكر الرحمن ويتعلم العلم وتقام الصلوات والشعائر نجد أنها تعد بمثابة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها كان من المغرقين.

فالزم أقدام العلماء في دروس العلم وتعلم من هديهم وسمتهم وأخلاقهم.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن اليقين ما تبلغنا به جنتك، ومن الصبر ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللهم املاً قلوبنا بتقواك وأسعدنا يوم القيامة برؤياك، وقنا ربنا شر نفوسنا إنك على كل شيء قدير.

